

## واقع التشريع الإسلامي معالمه وملامحه

واقع التشريع الإسلامي معالمه وملامحه

آية ١٠ جعفر السبحاني

قم - إيران

بسم الله الرحمن الرحيم

التشريع أحد أركان الحضارة فلا تجد مجتمعا حضاريا إلا وعنه قوة التشريع والتقنين وهذا مما لا كلام فيه.

وإنما الكلام في الأصل الذي يعتمد عليه التشريع ويستمد منه. فهناك منهجان:

منهج يعتمد في التحليل والتحريم على رأي الأكثريه بما صوبته الأكثريه يصبح قانونا محترما لدى الكل وما لم تصوبه الأكثريه يكون مرفوضا .

ومنهج يعتمد في التشريع على الواقعيات والمصالح والمفاسد مما كان واقعيا وصالحا للبشرية فهو

القانون السائد، وما لم يكن كذلك لا يعبر أبداً.

والإسلام في تشريعة يتبع المنهج الثاني لأن التشريع بيد الله سبحانه وتعالى وحده فلا حاجة إذا إلى رعاية التصويت والتصويب. وتتجلى واقعية التشريع الإسلامي في ملامحه ومعالمه.

فالتشريع الإسلامي يتميز بملامح، بينما هي ملامح ثبوتية ترجع إلى مادة

—(28)—

التشريع وروحه، وبينما هي ملامح اثباتية ترجع إلى دلالة التشريع.

فما يرجع إلى القسم الأول يتلخص في أمور ستة:

1 - الفطرة الإنسانية هي المقياس في التقنيين.

2 - التشريع حسب المصالح والمفاسد الواقعية.

3 - النظر إلى المادة والروح على سواء.

4 - النظر إلى الحقائق دون الظواهر.

5 - المرونة في التشريع.

6 - العدالة في التقنيين.

فلنأخذ كل واحد بالبحث واحداً تلو الآخر ثم نرجع إلى بيان ملامح التشريع الإسلامي في مقام الدلالة والإثبات.

أما الملامح الثبوتية فهي عبارة:

## ١ - الفطرة هي المقاييس

إن للإنسان مع قطع النظر عن الظروف الموضوعية المحيطة به شخصية تكوينية ثابتة لا تنفك عنه عبر الزمان، فالغرائز السفلية والعلوية هي التي تكتّون شخصيته ولا تنفك عنه ما دام الإنسان إنساناً، فجعل الإسلام الفطرة معياراً للتشريع، فكل عمل يجاوب وينساق مع الفطرة فقد أحله، وما هو على موضع الضد منها فقد حرّمه.

فقد ندب إلى الروابط العائلية وتنسيق الروابط الاجتماعية، كرابطة الولد بوالديه، والأخ بأخيه، والإنسان المؤمن بمثله، كما قد حذر عما ينافي خلقه وإدراكه العقلي، كتحريم الخمر والميسر والسفاح لما فيها من إفساد للعقل

- (29) -

الفطري والنسل والحرث.

فالأحكام الثابتة في التشريع القرآني تشريع وفق الفطرة.

## ٢ - التشريع حسب المصالح

نعم ثمة ميزة أخرى للتشريع القرآني، وهو أنه مبني على المصالح والمفاسد الواقعية. فلا واجب إلا لمصلحة في فعله، ولا حرام إلا لمصلحة في تركه، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالبغضاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدُّكُمْ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهُلْ أَنْتُمْ مُنْتَهَوْنَ﴾ (١) وقال سبحانه: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهِيُّ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (٢).

وعلى هذا الأساس فقد عق فقهاء الشيعة ببابا خاصا باسم تزاحم الأحكام في ملاكاها حيث يقدم الأهم على المهم، ويتوصل في تمييزهما بالقرائن المفيدة للاطمئنان.

## ٣ - النظر إلى المادة والروح على حد سواء

آلف القرآن بتعاليمه القيمة بينهما مؤلفة تفي بحق كل منهما حيث يفسح للإنسان أن يأخذ قسطه من كل

منهما بقدر ما يصلحه.

لقد غالت المسيحية (الغابرة) بالاهتمام بالجانب الروحي من الإنسان حتى كادت أن تجعل كل مظهر من مظاهر الحياة المادية خطيئة كبرى، فدعت إلى الرهبانية والتعزب، وترك ملاد الحياة، والانعزال عن المجتمع، والعيش في

---

1 - سورة المائدة: 91.

2 - سورة العنكبوت: 45.

-(30)-

الأديرة وقلل الجبال والتسامح مع المعذبين.

كما غالت اليهودية في الانكباب على المادة حتى نسيت كل قيمة روحية، وجعلت الحصول على المادة بأي وسيلة كانت، المقصد الاسنى، ودعت إلى القومية الغاشمة.

لكن الإسلام أخذ ينظر إلى واقع الإنسان بما هو كائن ذو بعدين، فبالبعد المادي لا يستغني عن المادة، وبالبعد الروحي لا يستغني عن الحياة الروحية، فأولاهما عنانيته، فدعا إلى المادة والالتزام بها بشكل لا يؤثرها على حياته الروحية، كما دعا إلى الحياة الروحية بشكل لا يصادم فطرته وطبيعته؛ وهكذا فقد قرن بين عبادة الله وطلب الرزق وترفيه النفس، فندب إلى القيام بالليل وإقامة التوافل، وفي الوقت نفسه ندب إلى طلب المعاش وتوخي اللذة، قال سبحانه:

ووالذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً<sup>(1)</sup>: فل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق<sup>(2)</sup>.

وقال علي أمير المؤمنين - عليه السلام -: «للمؤمن ثلاث ساعات: ساعة ينادي فيها ربها، وساعة يروم فيها معاشها، وساعة بينه وبين لذاتها»<sup>(3)</sup>.

إن التشريع القرآني ينظر إلى الحقائق لا إلى القشور، فلا تجد في الإسلام مظهراً خاصاً من مظاهر الحياة يكون له من القداسة ما يمنع من تغييره ويوجب

---

1 - سورة الفرقان: 64.

2 - سورة الأعراف: 32.

3 - نهج البلاغة: باب الحكم، الحكمة 93.

- (31) -

حفظه إلى الأبد بشكله الخاص، فليس هناك تناقض بين تعاليمه والتقدم العلمي.

فلو كان التشريع الإسلامي مصرّاً على صورة خاصة من متطلبات الحياة لما انسجم مع الحياة، فمثلاً ينهى الإسلام عن أكل الأموال بالباطل، وعلى هذا فرع الفقهاء حرمة بيع الدم لعدم وجود منفعة محللة له في تلك الأعصار الغابرة بيد أن تقدم العلوم والحضارة أباح للبشر أن يستخدم الدم في منافع محللة لم يكن لها نظير من قبل، فعادات المعاملة بالدم في هذه الأعصار معاولة صحيحة لا بأس بها، وليس هذا من قبيل نسخ الحكم، بل من باب تبدل الحكم بتبدل موضوعه كأنقلاب الخمر خلا.

فالإسلام حرّم أكل المال بالباطل، فما دام بيع الدم مصداقاً لتلك الآية كان محكوماً بالحرمة، فلما أُتيح للبشر أن يستفيد منه في علاج المرضى خرج عن كونه مصداقاً للآية، وهذا هو الذي عبرنا عنه في عنوان البحث بأن الإسلام ينظر إلى المعاني لا إلى القشور.

5 - المرونة في التشريع

إن من ملامح التشريع القرآني مرونته وقابليته للانطباق على جميع الحضارات الإنسانية، وما ذلك إلا لأنه

جاء بتشريعات خاصة لها دور التحديد والرقابة علىسائر تشريعاته، وهذا التشريع أعطى للدين مرونة ومنعطفاً جديداً قال سبحانه: ﴿وَمَا جعل عليكم في الدين من حرج﴾ (1) وقال: ﴿مَا يريد إِلَّا لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرْجٍ وَلَكُمْ يُرِيدُ لِيَطْهُرُكُمْ وَلَيَتَمَّ نِعْمَتِهِ عَلَيْكُمْ لَعْلَكُمْ تَشَكَّرُونَ﴾ (2).

---

1 – سورة الحج 78.

2 – سورة المائدة: 6.

– (32) –

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : (لا ضرر ولا ضرار) (1).

فحدد كل تشريع بعدم استلزم الضرر والضرار، فأوجب التيمم مكان الوضوء إذا كان استعمال الماء ضرراً، كما أوجب الإفطار على المريض والمسافر لغاية البسر، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعُذْنَةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أَخْرَى يُرِيدُ إِلَيْكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (2). إلى غير ذلك من الآيات والروايات التي لها دور التحديد والرقابة.

وجاء في الحديث عن الصادع بالحق أنه قال: «بعثت بالحنيفية السمحنة» (3).

وقال الإمام الصادق – عليه السلام –: «إن هذا الدين لمتين، فأوغلوا فيه برفق، لا تكرهوا عبادة إِلَّا لعباد الله» (4).

6 – العدالة في التقنيين

ومن ملامح التشريع القرآني، العدالة حيث تراها متجلية في كافة تشريعاته، خاصة فيما يرجع إلى القانون والحقوق، قال سبحانه: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّمَا الْمُعْتَدِلُونَ﴾ (5).

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُم﴾ (6).

وقال تعالى: [وَجْزَاءُ سَيِّئَةٍ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأُجْرُهُ عَلَى إِنْهِ]

---

1 - الوسائل: الجزء 16.

2 - سورة البقرة: 185.

3 - احمد بن حنبل: المسند: 5: 266.

4 - الكافي: 2 / 70 ح 1.

5 - سورة البقرة: 190.

6 - سورة البقرة: 194.

- (33) -

لا يحب الطالمين] (1).

وقال سبحانه: [وَلَا تَنْزِرْ وَازْرَةً وَزَرْ أَخْرَى] (2).

وقال سبحانه: [وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ] (3).

إلى غير ذلك من الآيات التي تدل على أن هيكل التشريع الإسلاميبني على أساس العدل والقسط.

هذه الملامح ترجع إلى سمات القانون الإسلامي ثبوتا.

لامح التشريع الإسلامي في مقام الإثبات

أما سماته في عالم الإنبات والدلالة فهي عبارة عن الأمور التالية:

أ – شموليته لعامة الطبقات.

ب – سعة آفاق دلالة القرآن والحديث.

ج – التدرج في التشريع.

أ – شمولية التشريع

أخذ القرآن الإنسان محور التشريع، مجردًا عن النزعات القومية والوطنية والطائفية واللونية واللسانية، فننظر إلى الموضوع بنظرية شمولية وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكْرٍ وَأَنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شَعُوبًاٰ وَقَبَائِلَ لِتَعْرَفُوا أَنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَنَا أَتْقَانُكُمْ إِنَّا عَلَيْمٌ بِحَمِيرِكُم﴾ (4).

---

1 – سورة الشورى 40.

2 – سورة الأنعام: 164.

3 – سورة البقرة: 228.

4 – سورة الحجرات: 13.

–(34) –

التشريع القرآني تشريع من جانب رب العالمين إلى نوع البشر، فالوطن والقوم والقبيلة لم تؤخذ بنظر الاعتبار، والكرامة للإنسان وحده، ولا فضل لإنسان على آخر إلا بالمثل والأخلاق.

فتري أنه يخاطب المجتمع الإنساني بقوله: (يا أيها الناس) أو (يا بني آدم) أو (يا أيها المؤمنون)

وما ضاهها، فكسر جميع الحواجز والقيود التي يعتمد عليها المفكر المادي في التقنيين الوضعي، والذي يقتفي أثر اليهود في مزعمه الشعب المختار.

إن النبي - صلى الله عليه وآله - هو القائل بأنه ليست العربية بأب والد، وإنما هو لسان ناطق، وفي الوقت نفسه لا يعني بكلامه هذا أن العلائق الطبيعية، كالانتماء الوطني أو القومي بغية لا قيمة لها، وإنما يندرج باتخاذها محاور للتقنيين، وسبباً للكرامة والمفخرة، أو سبيلاً لتحقيق الآخرين، وإيثارها على الدين والعقيدة، يقول سبحانه: ﴿لَا تجد قوماً يؤمنون بما في اليوم الآخر يوادون من حادثه رسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تحتها الأنهر خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا ان حزب الله هم المفلحون﴾ (1).

والعجب أنه قد صدر هذا من لدن إنسان أمي نشأ في بيئه تسودها خصلتان على جانب المضد من هذا النمط من التشريع، وهما:

الأمية والتعصب.

وهذا الإنسان المثالي صان بأنظمته كرامة الإنسان، ورفعه إلى الغاية القصوى

---

1 - سورة المجادلة: 22.

- (35) -

من الكمال، وأخذ يخاطب ضميره الدفين، ومشاعره النبيلة، ويكلفه بما فيه صلاحه، ويقول:

﴿وهذا بيان للناس﴾ (1).

﴿هذا بلاغ للناس﴾ (2).

بصائر للناس وهدى ورحمة ③.

يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور ④.

وإذا قورن هذا النوع من التشريع الذي ينظر إلى الإنسان بنظرة شمولية وبرأفة ورحمة، دون فرق بين عنصر وآخر، بالتقنيين الوضعيين السائد في أعمارنا في الشرق والغرب، الناظر إلى الإنسان من منظار القومية أو الطائفية وغيرها من النزعات المقيتة، لبان ان التشريع الأول تشريع سماوي لا صلة له بتلك النزعات، والآخر تشريع بشري متاثر بنظرات ضيقة تجود لإنسان وتبخل لآخر، وكفى في ذلك فرقا بين التشريعين.

### ب - سعة آفاق دلالة القرآن والحديث

إن من تمعن في القرآن الكريم وتدبر في معانيه ومفاهيمه، وقف على سعة آفاق دلالته على مقاصده، غير إن ثلة من الفقهاء مروا على القرآن مرورا عابرا مع انه سبحانه يعرف القرآن بقوله: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾ (1).

---

1 - سورة آل عمران: 138.

2 - سورة إبراهيم 52.

3 - سورة القصص: 43.

4 - سورة يوئس: 57.

- (36) -

وعلى ضوء ذلك لا غنى للفقيه عن دراسة آيات الأحكام دراسة معمقة ثاقبة، ليجد فيها الجواب عن أكثر المسائل المطروحة، ولا ينظر إليها بنظرة عابرة.

وقد استدل أئمة أهل البيت - عليهم السلام - بالقرآن على كثير من الأحكام التي غفل عنها فقهاء عصرهم، ونذكر هنا نموذجا على ذلك:

فُدّم إلى المตوكل رجل نصراني فجر بامرأة مسلمة، فأراد أن يقيم عليه الحد، فأسلم، فقال يحيى بن أكثم: الإيمان يمحو ما قبله، وقال بعضهم: يضرب ثلاثة حدود. فكتب المتوكل إلى الإمام الهادي - عليه السلام - يسألها، فلما قرأ الكتاب، كتب: «يضرب حتى يموت». فأنكر الفقهاء ذلك، فكتب المتوكل إلى الإمام الهادي - عليه السلام - يسألها عن العلة فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بِأَسْنَا قَالُوا إِنَّمَا بِهِ وَحْدَهُ وَكَفَرُنَا بِمَا كَنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون﴾ (2) فأمر به المตوكل، فضرب حتى مات (3).

تجد أن الإمام الهادي - عليه السلام - استنبط حكم الموضوع من آية مباركة، لا يذكرها الفقهاء في عداد آيات الأحكام، غير أن الإمام لوقفه على سعة دلالة القرآن، استنبط حكم الموضوع من تلك الآية، وكم لها من نظير. ولو أن القارئ الكريم جمع الروايات التي استشهد بها أئمة أهل البيت على مقاصدهم استشهادا تعليميا

---

1 - سورة النحل 89.

2 - سورة غافر 84 - 85.

3 - ابن شهر آشوب: مناقب أبي طالب 4: 403 - 405.

- (37) -

لا تعبد يا لوقف على سعة آفاق القرآن.

وها نحن نذكر مثالين على سعة آفاق دلالته:

1 - إن الأصوليين تحملوا عبئا ثقيلا لإثبات كون الأمر موضوعا للوجوب ومجازا في الندب، فإذا ورد الأمر

في الكتاب احتاجوا في استفادة الوجوب منه إلى نفي المدلول المجازي، بإجراء أصالة الحقيقة.

ولكن هذا النمط جار في المحاورات العرفية، والقرآن في غنى عنها في اغلب الموارد أو اجمعها، فإن لاستفادة الوجوب أو الندب في الأوامر الواردة في القرآن طريقة آخر، وهو الإيعاز بالعذاب أو النار كما نجد في كثير من الواجبات مثل الصلاة والزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال سبحانه: ﴿مَا سلّكُوكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوكُمْ لَمْ يَكُنْ مِّنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (١).

وقال سبحانه: ﴿وَسِيحَنِيهَا الْأَنْقَىٰ ذَلِيْلٌ يَؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ﴾ (٢) بل كل ما أوعده على فعله أو تركه يستفاد منه الوجوب أو الحرمة.

٢ - اختلف الفقهاء في وجوب الكتابة في التدابير بشهادتها بشهادة الواردين في قوله سبحانه: ﴿وَلِيَكُتبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ.. وَاسْتَشْهِدُوكُمْ شَهِيدِينَ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ (٣).

فمن قائل بالوجوب أخذًا بأصالة الحقيقة، وسائل باستحبابه مستدلا بالإجماع، ومعذرًا عن الأصل المذكور بكثرة استعمال صيغة الأمر في الندب، مع أن الرجوع إلى نفس الآية وما ورد حولها من الحكمة يعطي بوضوح أن

---

١ - سورة المدثر ٤٢ - ٤٣.

٢ - الليل ١٧ - ١٨.

٣ - سورة البقرة: ٢٨٢.

- (٣٨) -

الأمران لا للوجوب ولا للنحو، بل الأمران إرشاديان لئلا يقع الاختلاف بين المتداينين فيسد باب النزاع والجدال. قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ أَقْسَطٌ عِنْهُمْ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى إِلَّا تَرْتَبُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدْبِرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ (١).

ويدل على سعة دلالته أيضاً ما رواه المعلى بن خنيس، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام : «ما من أمر يختلف فيه اثنان إلا وله أصل في كتاب الله عز وجل، ولكن لا تبلغه عقول الرجال»(2).

وقال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : «ذلك القرآن فاستنبطوه ولن ينطق لكم، أخبركم عنه إن فيه علم ما مضى، وعلم ما يأتي إلى يوم القيمة، وحكم ما بينكم، وبيان ما أصبحتم فيه تختلفون، فلو سألتمني عنه لعلمتكم» (3).

وقال الصادق عليه السلام: «كتاب الله فيه بما قبلكم، وخبر ما بعدهم، وفصل ما بينكم، ونحن نعلمهم» (4).

والسابر في روايات أئمة أهل البيت - عليهم السلام - يقف على أنهم كانوا يستنبطون من الآيات نكارة بدعة ومعانٍ رفيعة عن مستوى الافهام.

وربما يتصور الساذج أن هذا النوع من التفسير تفسير بالرأي وفرض على الآية، ولكن بعد الإمعان في الرواية والوقوف على كيفية استدلالهم عليهم السلام يذعن بأن لها دلالة خفية على ذلك المعنى الرفيع الشامخ وقد غفل عنه.

مثال ذلك ما رواه العياشي في تفسيره، عن زرقان صاحب ابن أبي دؤاد: أن

---

1 - سورة البقرة: 282.

2 - الكافي 1: 60 - 61، باب الرد إلى الكتاب والسنة، الحديث 6 و 7 و 9.

3 - الكافي 1: 60 - 61، باب الرد إلى الكتاب والسنة، الحديث 6 و 7 و 9.

4 - الكافي 1: 60 - 61، باب الرد إلى الكتاب والسنة، الحديث 6 و 7 و 9.

سارقا اقر على نفسه بالسرقة وسائل الخليفة تطهيره بإقامة الحد عليه، فجمع لذلك الفقهاء في مجلسه وقد احضر محمد بن علي - عليه السلام - فسألنا عن القطع في أي موضع يجب ان يقطع، فقال الفقهاء: من الكرسوع، لقوله في التيمم: «فما مسحوا بوجوهكم وأيديكم»<sup>(1)</sup>.

فالتفت الخليفة إلى محمد بن علي فقال: ما تقول في هذا يا أبا جعفر؟

فأجاب: «انهم اخطأوا فيه السنة، فإن القطع يجب ان يكون من مفصل أصول الأصابع، ويترك الكف» قال: لم؟

قال: لقول رسول الله - صلى الله عليه وآله - السجود على سبعة أعضاء: الوجه، واليدين، والركبتين، والرجلين، فإذا قطعت يده من الكرسوع لم يبق له يد يسجد عليها، وقال الله تبارك وتعالى: «وأن المساجد هن يعني به الأعضاء السبعة التي يسجد عليها فلا تدعوا مع الله أحداً وما كان الله لم يقطع.

فأعجب المعتصم ذلك، فأمر بقطع يد السارق من مفصل الأصابع دون الكف<sup>(2)</sup>.

وروي عن الإمام أمير المؤمنين - عليه السلام - أنه كان إذا قطع السارق ترك الإبهام والراحة، فقيل له: يا أمير المؤمنين تركت عليه يده؟ قال: فقال لهم: «فإن تاب فبأي شيء يتوضأ؟ لأن الله يقول: «والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما» - إلى قوله - : «فمن تاب من بعد ظلمه واصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم»<sup>(3)</sup>.»<sup>(4)</sup>

فهذا النمط من الاستدلال يوقف القارئ على سعة دلالة الآيات القرآنية،

---

1 - سورة النساء : 43 .

2 - الوسائل 18: الباب 4 أبواب حد السرقة، الحديث 5 و 6.

3 - الوسائل 18: الباب 4 أبواب حد السرقة، الحديث 5 و 6.

-(40)-

وان أئمة أهل البيت - عليهم السلام - هم السابقون في هذا المضمار، يستنبطون من القرآن ما لا تصل إليه الافهام.

وأما عدد آيات الأحكام فقد ذكر الفاضل المقداد في تفسيره «كنز العرفان» ما هذا نصه:

اشتهر بين القوم ان الآيات المبحوث عنها نحو خمسين آية، وذلك إنما هو بالمتكرر والمتدخل، وإن فهفي لا تبلغ ذلك، فلا يظن من يقف على كتابنا هذا ويضبط عدد ما فيه، انا تركنا شيئاً من الآيات فيسيء الطن به ولم يعلم أن المعيار عند ذوي البصائر والأ بصار، إنّما هو التحقيق والاعتبار لا الكثرة والاشتهر (1).

ويظهر من البعض ان عدد آيات الأحكام ربما تبلغ 340 آية، قال عبد الوهاب خلاف:

ففي العبادات بأنواعها نحو 140 آية.

وفي الأحوال الشخصية من زواج وطلاق وارث ووصية وحجر وغيرها نحو سبعين آية.

وفي المجموعة المدنية من بيع وإجارة ورهن وشركة وتجارة ومداينه وغيرها نحو سبعين آية.

وفي المجموعة الجنائية من عقوبات وتحقيق جنائيات نحو ثلاثين آية.

وفي القضاء والشهادة وما يتصل بها نحو عشرين آية (2).

ولكن بالنظر إلى ما ذكرنا من سعة آفاق دلالته يتبيّن ان عددها ربما يتجاوز عن الخمسين، إذ رب آية لا تمت إلى الأحكام بصلة، ولكن بالدقّة والإمعان

1 - جمال الدين المقداد السعدي: كنز العرفان في فقه القرآن 1: 5.

2 - عبد الوهاب خلاف: خلاصة تاريخ التشريع الإسلامي: 28 - 29.

-(41)-

يمكن أن يستنبط منها حكم شرعى.

فمثلاً سورة المسد، أعني قوله سبحانه: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ...﴾<sup>(1)</sup> بظاهرها ليست من آيات الأحكام، ولكن للفقيه أن يستند إليها في استنباط بعض الأحكام الشرعية، وقد حكى عن بعض الفقهاء أنه استنبط من سورة «المسد» قرابة عشرين حكماً فقهياً، كما استنبطوا من قوله سبحانه: ﴿قَالَ أَنِّي أَرِيدُ أَنْ أَنْكِحَ إِحْدَى ابْنَتِي هَا تِينَ عَلَى أَنْ تَأْجُرْنِي ثَمَانِي حَجَّ إِنْ أَتَمِّمْتُ عَشْرًا فَمَنْ عَنْدَكَ...﴾<sup>(2)</sup> أحكاماً شرعية.

وهذا بالنسبة إلى ما ذكرناه من سعة آفاق دلالة القرآن ليس بغرير.

## الدرج في التشريع

نزل القرآن تدريجياً قرابة ثلاثة وعشرين سنة لأسباب ودواع مختلفة اقتضت ذلك، وأشار إليها الذكر الحكيم في غير واحد من الآيات:

قال سبحانه: ﴿وَقَرَأْنَا فِرْقَنَا لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْثٍ وَنَزْلَنَاهُ تَنْزِيلًا﴾<sup>(3)</sup>.

أي فرقنا نزوله كي تقرأه على الناس على مهل وتربيث.

كما أشار في آية أخرى إلى داع آخر، قال سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جَمِلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثْبِتَ بِهِ فَوَادِكَ وَرَتَلَنَاهُ تَرْتِيلًا﴾<sup>(4)</sup> فثبتت فواد النبي - صلى الله عليه وسلم - أحد الأسباب التي دعت إلى نزول القرآن بين الحين والآخر

## ١ - سورة المد : ١\_٢

## 2 - سورة القصص: 27 - 28 .

3 - سورة الإسراء: 106.

.32 - سورة الفرقان: 4

- (42) -

وفي غضون السنين، شاحذا عزمه - صلى الله عليه وآله - للمضي في طريق الدعوة بلا مبالاة لما يتهمونه به.

والآية تعرب عن أن الكتب السماوية الأخرى كالتوراة والإنجيل والزبور نزلت جملة واحدة، فرغب الكفار في ان ينزل القرآن مثلها دفعه واحدة.

وليس الدواعي للنزول التدريجي منحصرة فيما سبق، بل إن هناك أدسراً ودواعي أخرى دعت إلى نزوله نجوماً، وهي مسايرة الكتاب للحوادث التي تستدعى لنفسها حكماً شرعياً، فإن المسلمين كانوا يواجهون الأحداث المستجدة في حياتهم الفردية والاجتماعية ولم يكن لهم محيسن من طرحها على النبي - صلى الله عليه وآله - بغية الطفر بأجوبتها، وقد تكرر في الذكر الحكيم قوله سبحانه: [يسألونك] قرابة خمس عشرة مرة وتصدى النبي - صلى الله عليه وآله - للإجابة عنها، وتختلف تلك المواضيع بين الاستفسار عن حكم شرعي، كحكم القتال في الشهر الحرام، والخمر، والميسر، والتصرف في أموال اليتامي، والأهلة، والمحيسن، والأنفال، وغير ذلك؛ أو الاستفسار عن أمور كونية كالروح والجبار وال الساعة.

وهناك شيء آخر ربما يؤكد لزوم كون التشريع أمرا تدريجيا، وهو أن موقف النبي - صلى الله عليه وسلم - تجاه أمهاته كموقف الطبيب من مريضه، فكما أن الطبيب يعالج المريض شيئاً فشيئاً حسب استعداده، فكذلك الطبيب الروحي يمارس نشاطه التربوي طبقاً لقابليات الأمة الكامنة بغية الاستجابة، لئلا تثبط عزائمهم ويطفأ نشاطهم وينقل كا هلهم.

ومع ذلك فإن كانت الظروف مهيأة لتنزول تشريع أكثر تفصيلاً وأوسع تعقيداً وافاهم الوحي به، كما في

قوله سبحانه: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَنْتُمْ مَا حَرَمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ إِلَّا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدِينِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتِلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرِزُّكُمْ﴾

–(43) –

وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون﴾ (1).

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرِبُوا مَالَ الْيَتَيمِ إِلَّا بِالْتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشْدَهُ وَأَوْفُوا الْكِيلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نَكْلُفُ نُفُسُوا إِلَّا وَسَعَهَا وَإِذَا قَلْتُمْ فَاعْدُلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللهِ إِلَّا أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَاكُمْ بِهِ لِعْلَكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (2).

حيث تجد أن الآيتين تتکفلان تشريع عشرة أحكام تعد من جوامع الكلم، وقد روی أمین الإسلام الطبرسي، قال: روی علي بن إبراهيم، قال: خرج أسعد بن زراره وذکوان إلى مكة في عمرة رجب يسألون الحلف على الأوس، وكان أسعد بن زراره صديقاً لعتبة بن ربیعة، فنزل عليه، فقال له: انه كان بيننا وبين قومنا حرب وقد جئناكم نطلب الحلف عليهم، فقال عتبة: بعدت داركم ولنا شغل لا نتفرغ لشيء، قال: وما شغلكم وانتم في حرمكم وأمنكم؟!

قال له عتبة: خرج فينا رجل يدعى انه رسول الله، سفه أحلامنا، وسب آلهتنا، وافسد شبابنا، وفرق جماعتنا، فقال له أسعد: من هو منكم؟ قال: ابن عبد الله بن عبد المطلب، من أوسطنا شرفًا، واعظمنا بيته؛ وكان أسعد وذکوان وجميع الأوس والخرج يسمعون من اليهود الذين كانوا بينهم أبناء «النصير» و«قريطة» و«قينقاع» ان هذا أوان نبي يخرج بمكة يكون مهاجره بالمدينة لنقتلنكم به يا عشر العرب، فلما سمع ذلك اسعد وقع في قلبه ما كان سمعه من اليهود، قال: فأين هو؟ قال: جالس في الحجر، وانهم لا يخرجون من شعبهم إلا في الموسم، فلا تسمع منه ولا تكلمه، فإنه ساحر يسحرك بكلامه، وكان هذا في وقت محاصرةبني هاشم في الشعب،

-(44) -

فقال له اسعد: فكيف أصنع وأنا معتمر لابد لي ان اطوف بالبيت؟ فقال: صع في أذنيك القطن، فدخل اسعد المسجد وقد حشا أذنيه من القطن، فطاف بالبيت ورسوله ﷺ - صلى الله عليه وآله - جالس في الحجر مع قوم منبني هاشم، فنظر إليه نظرة، فجازره.

فلما كان في الشوط الثاني قال في نفسه: ما أجد أجهل مني أ يكون مثل هذا الحديث بمكة فلا أعرفه حتى أرجع إلى قومي فأخبرهم، ثم أخذ القطن من أذنيه ورمى به، وقال لرسول ﷺ: أنعم صاحاً، فرفع رسول الله رأسه إليه وقال: «وقد أبدلناك به ما هو أحسن من هذا تحية أهل الجنة: السلام عليكم» فقال له أسعد: ان عهدي بهذا لقريب إلام تدعوه يا محمد؟ قال: «إلى شهادة ان لا اله إلا الله وإنني رسول الله، وأدعوكم:

﴿إِلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدِينِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتِلُوا أُولَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقِنَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرِبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتِلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَاحِكُمْ بِهِ لِعْلَكُمْ تَعْقِلُونَ وَلَا تَقْرِبُوا مَالَ الْيَتَيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشْدَهُ وَأَوْفُوا الْكِيلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقَسْطِ لَا نَكْلُفُ نَفْسًا إِلَّا وَسَعَهَا وَإِذَا قَلْتُمْ فَاعْدُلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قَرْبَى وَبَعْدَهُ إِلَّا أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَاحِكُمْ بِهِ لِعْلَكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(١).

فلما سمع اسعد هذا قال: اشهد ان لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وانك رسول الله يا رسول الله بأبي أنت وأمي أنا من أهل يثرب من الخرج، وبيننا وبين أخواننا من الأوس حبائل مقطوعة، فإن وصلها لك فلا أجد اعز منك، ومعي رجل من قومي فإن دخل في هذا الأمر رجوت ان يتمم الله لنا امرنا فيك،

1 - سورة الأنعام: 151 - 152 .

-(45) -

﴿وَإِنَّ رَسُولَنَا لَقَدْ كَانَ نَسْمَعُ مِنَ الْيَهُودَ خَبَرَكَ، وَكَانُوا يَبْشِرُونَا بِمُخْرَجِكَ، وَيَخْبِرُونَا بِصَفَتكَ، وَأَرْجُو أَنَّ

تكون دارنا دار هجرتك، وعندنا مقامك، فقد أعلمـنا اليهود ذلك، فالحمد للذي ساقني إليك، وأما ما جئت إلا لطلب الحلف على قومـنا، وقد أتـانا اللهـ بأفضل ما أتيـت له (1).

ومع ذلك كله فالتدرج هو المخيم على التشريع، خاصة فيما إذا كان الحكم الشرعي مخالفـا للحالة السائدة في المجتمع، كما في شرب الخمر الذي ولـع به المجتمع الجاهلي آنذاك، فـمعالـجة هذه الرذيلة المتـجذـرة في المجتمع رهن طـي خطـوات تـهيـء الأرضـية الـلـازـمة لـقبـولـها في المجتمع.

وقد سـلك القرآن في سـبيل قـلع جـذـور تلك الرـذـائل مـسلـك التـدرج.

فتـارة جـعل السـكر مقـابـلا للـرـزـقـ الحـسـنـ، وـقالـ: [وـمـن ثـمـرات النـخـيلـ وـالـأـعـنـابـ تـتـخـذـونـ منـهـ سـكـراـ وـرـزـقاـ حـسـنـاـ] (2).

فـاعتـبر اـتـخـادـ الخـمـرـ منـ التـمـورـ وـالـأـعـنـابـ - فـي مجـتمـعـ كانـ تعـاطـيـ الخـمـرـ فـيـهـ جـزـءـ أساسـياـ منـ حـيـاتـهـ - مـخـالـفاـ للـرـزـقـ الحـسـنـ، وـبـذـلـكـ اـيـقـطـ العـقـولـ.

وـهـذـهـ الآـيـةـ مـهـدـتـ وـهـيـئـتـ العـقـولـ وـالـطـبـائـعـ المـنـحرـفـ لـخـطـوةـ أـخـرىـ فـيـ سـيرـهاـ نحوـ تـحرـيمـ الخـمـرـ، فـتـلـتـهاـ الآـيـةـ الثـانـيـةـ مـعـلـنـةـ بـأـنـ فـيـ الخـمـرـ وـالـمـيـسـرـ اـثـمـ وـنـفـعـ، وـلـكـ اـثـمـهـماـ اـكـبـرـ مـنـ نـفـعـهـماـ، قـالـ سـبـحـانـهـ: [يـسـأـلـونـكـ عـنـ الخـمـرـ وـالـمـيـسـرـ قـلـ فـيـهـماـ اـثـمـ كـبـيرـ وـمـنـافـعـ لـلـنـاسـ وـاـثـمـهـماـ اـكـبـرـ مـنـ نـفـعـهـماـ] (3).

إـنـ هـذـاـ الـبـيـانـ وـاـنـ كـانـ كـافـيـاـ إـلـاـ أـنـ جـمـاهـيرـ النـاسـ لاـ يـقـلـعـونـ عـنـ عـادـتـهـمـ

---

1 - الطبرسي: العام الورى: 55 - 57.

2 - سورة النحل: 67.

3 - سورة البقرة: 219.

المتجذرة ما لم يرد نهي صريح حتى وافتهم الآية الثالثة، قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرِبُوا الْمَلَأَ وَإِنْتُمْ سَكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾(1). فالآية الكريمة جاءت بالنهي الصريح عن شرب الخمر في وقت محدد، أي عند إرادة الصلاة بغية الوقوف على ما يتلون من القرآن والأذكار.

فهذه الخطوات الثلاث هيئت ارضية صالحة للتحريم القاطع الذي بينه سبحانه في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذْمًا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعْلَكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(2).

وأدل دليل على ان التشريع القرآني كان يتمتع بالتدريج، تتابع الأسئلة على النبي - صلى الله عليه وآله - في فترات مختلفة بغية إجابة الوحي عنها، قال سبحانه:

1 - ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يَنْفَقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِّنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ الْدِينُ وَالْأَقْرَبُونَ﴾(3).

2 - ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قَتَالٌ فِيهِ قُلْ قَتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾(4).

3 - ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا أُثْمٌ كَبِيرٌ﴾(5).

4 - ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يَنْفَقُونَ قُلْ الْعَفْوُ﴾(6).

5 - ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحُ لَهُمْ خَيْرٌ﴾(7).

6 - ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيصِ قُلْ هُوَ أَذْيٌ﴾(8).

---

1 - سورة النساء : 43.

2 - سورة المائدة: 90.

3 - سورة البقرة: 215.

4 – سورة البقرة: 217.

5 – سورة البقرة: 219.

6 – سورة البقرة: 219.

7 – سورة البقرة: 220.

8 – سورة البقرة: 222.

– (47) –

7 – ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحْلَ لَهُمْ قُلْ أَحْلَ لَكُمُ الْطَّيِّبَاتُ﴾(1).

8 – ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِرَسُولِ﴾(2).

وقد جاء في بعض الآيات لفظ الاستفتاء بدل السؤال: قال سبحانه:

9 – ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلْ إِنَّمَا يَفْتَيِكُمْ فِيهِنَ﴾(3).

10 – ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلْ إِنَّمَا يَفْتَيِكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾(4).

ومما يدل أيضاً على ان التشريع القرآني أخذ لنفسه صورة التدرج هو أن الآيات المتضمنة للأحكام الشرعية منبثقة في سور شتى غير مجتمعة في محل واحد، وهذا يوضح أن التشريع لم يكن على غرار التشريع في التوراة الذي نزل دفعة واحدة يقول سبحانه: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِدَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخَذْهَا بِقُوَّةٍ وَأَمْرَ قَوْمًا يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأْوَرِيَّكُمْ دَارِ الْفَاسِقِينَ﴾(5).

وقال: ﴿ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون﴾ (6).

هذا بعض الكلام في ملامح التشريع الإسلامي ثبوتا وإثباتا قدمتها للمؤتمر العالمي الحادي عشر (ربيع الأول 1419) للوحدة الإسلامية، عسى أن يوفق أصحابنا لجمع شمل المسلمين وتقرير خطتهم.

---

1 – سورة المائدة 4.

2 – سورة الأنفال: 1.

3 – سورة النساء: 127.

4 – سورة النساء: 176.

5 – سورة الأعراف: 145.

6 – سورة الأعراف: 154.